

من المفاهيم الأساسية في التربية الحديثة: «المشروع التربوي بين الوهم والواقع»

الأب سليم دكاش اليسوعي^٥

مقدمة

لا جدال في أن التربية ضمن إطار المدرسة والتعليم لها أهميتها القصوى في المجتمعات الحديثة سواء أفي البلدان المتقدمة أم في البلدان النامية، إذ إن التربية متداخلة بصورة وثيقة في الحياة الاجتماعية والعائلية والسياسية والاقتصادية والثقافية... فالتربية هي نظام متكامل متواصل صاغه المجتمع ووضعه لنقل القيم والمعارف والمهارات إلى الأجيال الجديدة، وهي مجموعة من الأفعال والمؤثرات التي يمارسها إرادياً إنساناً على آخر، وهدفها يقضي بتكوين استعدادات لدى الكائن الشاب تتطابق مع غايات نوعه أو جنسه، ومع ما يريد أن يفعله عندما يبلغ نضوجه.

ومع تنامي أهمية التربية في عالم اليوم وتداخلها في عوالم الثقافة والاقتصاد والسياسة؛ ولأنّ للتربية مهمات جليلة ليس أقلها مشاركة العائلة والجماعة في إدخال الفرد ودمجه في المجتمع (socialisation)، وأنسة هذا الفرد (humanisation)، وتربيته على قيم أساسية كالحق والعدالة والصداقة والثقة والإقدام، وكذلك تنقيفه من خلال التمدن والتحضّر (culture)، أخذت الشعوب والدول تعدّ الخطط التربوية والمشاريع التعليمية لإنشاء

(٥) مدير ثانوية مينة الجمهور - رئيس تحرير المشرق.

المدارس وتنظيمها بما يتلاءم والحاجات المحليّة، وتضع المناهج التعليميّة التربويّة لتناسب وحاجات تلك الدّول، وتساعد الفرد المتعلّم فيها على تطوير قدراته وإنضاجها، فيصبح المواطنُ بعلمه وتربيته، بمعارفه ومهاراته، صاحب الدور الإيجابي في صنع المستقبل.

الخيارات التربويّة

واختيار تربية معيّنة هو في الأساس اختيار كيفية تحقيق نوع محدّد من الإنسان والمجتمع. ولأنّ التربية مرتبطة الارتباط الوثيق بوضعية المجتمع الذي هو أكثر من إطار لها، فإنّ النظريّات التربويّة المعاصرة نشأت لتجيب عن أزمة التربية في علاقتها بالمجتمع المعاصر. فمهمّة المدرسة اليوم، بحسب هذه النظريّات، هي اللحاق بالمجتمع المتطوّر بسرعة مستديمة. وهدف المدرسة، ثانيًا، هو التكيّف مع المجتمع. فنستطيع إذ ذاك، السيطرة على تحرّكه ونموّه، وتوجيه تطوّره. ولا شك في أنّ التقنيّات التربويّة والمنهجيّات المختلفة، مثل منهجيّة التناوب (alternance) التي توزّع التعليم بين المدرسة والمصنع أو المؤسّسة الإنتاجيّة، أو منهجيّة الأهداف التربويّة التي حوّلت التعليم إلى وحدات محدّدة المعالم واضحة الأهداف، هي تقنيّات ومنهجيّات تسعى لتكييف الأفراد مع وضعية المجتمع الحالي، مجتمع الثّورة العلميّة الصناعيّة التقنيّة، مجتمع ثورة وسائل الاتّصال والإعلام. ولأنّ مجتمع اليوم، مجتمع صناعي متقدّم، يقوم على مشروع معيّن محدّد، يهدف إلى توجيه المادّة نحو صيغة معيّنة من خلال تعديلها وتركيبها، فإنّ التربية، التي هي عملٌ على الإنسان أو عمل الإنسان على نفسه من أجل الوصول إلى حالة معيّنة، أرادت أن يكون لها مشروعها وخطّتها وشرعتها.

«المشروع» الثقافيّ

وكما أنّ لكلّ مصطلح من المصطلحات قصّة، فإنّ لمصطلح «مشروع» في الثقافة الأنثروبولوجيّة الحديثة قصّة أيضًا. إزدھر هذا

المصطلح منذ خمس وعشرين سنة تقريباً في كتب علوم التربية وفي الكثير من وثائق وزارات التربية الرسمية في الغرب، بعد أن كان قد نشأ في المؤسسات الصناعية والتقنية الكبرى حيث يلزم العمل الجماعي من خلال برنامج عمل واضح يوضع في يد فريق العمل لتحقيقه وإنجازه. فلكل مؤسسة مشروعها وأهدافها في تحقيق بعض الأمور المعينة والإنتاج الظاهر، ولا بد أن يمر ذلك من خلال عمل جماعي.

ومفهوم «المشروع» كما هو متداول اليوم ومنذ الخمسينات تقريباً، بوجه مباشر أو غير مباشر، هو ردٌّ على ما حصل من متغيرات اجتماعية وسياسية عميقة الجذور إثر الحرب العالمية الثانية والنهضة الصناعية العظمى التي نتجت منها. فمع نهاية تلك الحرب، انتقل العالم من نظام اجتماعي حياتي قائم على التقاليد والمؤسسات الاجتماعية والعائلية وعلى أولوية الإيمان والشريعة الخارجية، إلى شكل جديد أخذ يغزو مدن العالم وشوارعه، ألا وهو مجتمع الاستهلاك والانتقال من القرية إلى المدينة، مجتمع وسائل الاتصال والفردية.

هذا الانتقال لا يعني أن المجتمع التقليدي قد زال، بل هو باقٍ على قيد الحياة، وما الأصولية إلا الجواب أو أحد الأجوبة عن الخطر الآتي من مجتمع الاستهلاك. فالمجتمع التقليدي يعتمد الدفاع عن نفسه وعن مؤسساته ونماذجه وقوانينه وعاداته، ويدعو إلى طرق للتفكير والعمل تكون طرقاً محدّدة ثابتة لا تبدل. وهذا المجتمع يدعو الجيل الجديد إلى التمثل بالجيل القديم من خلال المحافظة على العادات والثقافة واللغة والمصطلحات، وروحية العائلة والدين والمعتقد... ممّا يعزّز الوحدة والوجدان المشترك والهوية الثابتة غير المتقلّبة. فكلّ ما يسبّب الانشقاق والتعارض لا مكان له في إطار هذا المجتمع لأنّه خطر على الاستمرارية والحياة المشتركة ذات التوجّه الواحد.

إلا أن هذا المجتمع هو في حالة الدفاع عن النفس، لأنّ الثقافة الآتية هي الثقافة الغازية، ثقافة المجتمع الصناعي الجماهيرية وقد

اعتمدها، برعي أم بدون وعي، الكثير من بلدان العالم الثالث. فمن المستحيل القول إن هناك من الدول أو الشعوب أو البلدان من هي بمنأى عن ذلك الخطر، حتى ولو مُنعت الصحون اللاقطة عن سطوح المنازل... مع أنها تعود لتزدهر ليلاً. فعقلية المجتمع الصناعي الثنائي المتقدم تتواجد اليوم في كل مكان، حتى ليُقال إنها ظاهرة كونية. فمن سمات هذه العقلية وخصائصها سرعة تأثيرها وفاعليتها في النفوس، إذ تنقل الفرد بصورة فورية من عالم إلى آخر، وكذلك سرعة حصول المبتعد على أكثر من صعيد.

- في حقل التقنيات، يلغي النموذج الجديد بفاعليته المتقدمة النموذج القديم: اختراع الوسائل الجديدة في عالم الاتصال...
- في حقل العلوم، مع مطلع كل صباح يصدر الجديد وتتم أكثر فأكثر السيطرة على المجهول.
- في حقل القيم، هناك تبدل سريع في سُلّم القيم، من تراجع دور العائلة والدين، إلى تنامي الطلاق والتفسخ الاجتماعي والفردية وتعاضل دور وسائل الاتصال...

هذه المتغيرات الحاصلة على أكثر من صعيد تهدد بفقدان الهوية وتعاضل فقدان المرجعيات وتفسخ الجسم الاجتماعي المتماسك المتناسق قبلاً وتميّز الفردية. في هذه الحالة، وإن تعاضلت العقلانية الفردية أو الجماعية، فإن الفرد يصبح تائهًا لا يعلم ما هو المطلوب منه في إطار الحياة العامة، إذ إنه فقد مرجعيته القديمة ولم يستطع الحصول على مرجعية جديدة يستند إليها فتوجه حياته من خلال ارتباطه بالجماعة. من هنا نشأت الحاجة إلى «المشروع»، أي الإطار الفكري الإنساني الاجتماعي الذي يحدّد دور كل واحد ودور المؤسسة وغايتها وأهدافها، حتى ولو استقى ذلك المشروع أفكاره الأساسية من مراجع لها علاقة بالمجتمع التقليدي. فالمشروع الفردي أو المؤسّساتي هو درعٌ للحماية، وهو غطاء لمجابهة الخطر الآتي من عالم مجتمع الاستهلاك وقوانينه، وهو السبيل إلى مجابهة أزمة الإنسان المعاصر مع نفسه، الذي أصبح

العوية في نتاجه ومنتزجه وفقد بالتالي السيطرة على مصيره ومعنى حياته .

ولا شك في أننا نستطيع الإفادة من المعاني التي تتضمنها عبارة «مشروع» في اللغة: فالمشروع في اللغة من «شَرَعَ» ويعني المسنون المسوَّغ، والميَّن، والمباشر به، والمُؤدَّد المُصَوَّب...، وهو بالتالي مجمل الأفكار والتصورات والمعاني التي بنوي الفرد أن ينطلق بها إلى التحقيق بوجه نظامي متكامل. إلا أن هذا المدلول الذي استخرجناه من هذه العبارات لا يعبر عن واقع المشروع، كما هو متداول في عالم التربية: فالمشروع هو مفهوم مركزي في وجود الإنسان، إذ إنه يعبر عما يريد الإنسان أو ما تتصوره المؤسسة لنفسها. فالمشروع، من هذا المنحى، مؤسَّس على تصوّر فلسفي قريب من الوجودية التي جعلت منه خاصية الكائن الأساسية وطريقة معينة يجب من خلالها الفرد عن متطلبات الواقع حيث هو موجود، فيصبح لذلك الواقع المعنى الأكيد، ويصبح هذا المعنى مصدر الخيارات الجزئية، وهي الطريق إلى التكوّن الحرّ والسييل إلى أن يني الفرد نفسه بنفسه. فالمشروع هو همّ أساسي من هموم الإنسان، الإنسان المعاصر في المجتمع المعاصر.

وهكذا فإن كلمة «مشروع» دخلت حديثاً، بمعناها الحالي، في إطار الثقافة والعلوم التربوية، إذ إن كبار التربويين أخذوا يستخدمون هذه العبارة بصورة مباشرة أو غير مباشرة منذ منتصف القرن الحالي، فكان لكلمة «مشروع» دلالتها الإيجابية وأضحت مرادفاً لكلمة تطوّر ونمو، وأصبحت المقياس أو الميزان الذي يعطي القيمة العمل الفعلي والمنظّم الذي يقوم به فرد من الأفراد يرمي الوصول إلى هدف محدّد فيتخذ الوسائط الضرورية لتحقيقه. وإذا ما أردنا أن نحدّد مفهوم المشروع، أشرنا إلى أنه فعل استباق يفترض القدرة على تصوّر ما هو غير حاضر والقدرة على تصوّر أو تخيل المستقبل كواقع محدّد من خلال تركيب سلسلة من الأفعال والأحداث المحتمل حدوثها، يتمّ تنظيمها بوجه قبلي (a priori) ومن دون اختبار مسبق لها.

أوجه «المشروع» الثقافي

ويتضمن «المشروع» وجهين فيهما من التعارض والتكامل: فالوجه الأول يعبر عن الغاية المطلقة مما يراد فعله، وهذه الغاية نفسها تعبر عن الأسانيد والمراجع الفلسفية والأبعاد الثقافية ويتم صياغتها في غايات وأغراض ومقاصد وأهداف متنوعة. والوجه الثاني من المشروع هو وجه ذو طابع عملي وبرغماتي، يُعرف كذلك من خلال الأفعال التي يتم عرضها وشرحها، ومن خلال برمجة تلك الأفعال التي يجب تحقيقها. وهكذا فإن المشروع، بصورة عامة أولاً، وعندما نتحدث عنه بوصفه أداة في عالم التربية ثانياً، يتألف من عنصرين: يتضمن الأول بعضاً من الللاواقع أو المتصور الثاني التخطيط الدقيق في أفقٍ تورع إلى وحدات واضحة المعالم ترتبط بأزمة مضبوطة.

وإذا كان «المشروع» يشير إلى ذلك الفعل المنوي تحقيقه والمضمر والظاهر والمسدد والمعبر عنه في آن معاً، فإنه الوسيلة والغاية الممكن صياغتها على الصعيد الفردي، والصعيد الجماعي، والصعيد الشخصي، والصعيد المهني. فالحديث عن المشروع يتناول مشروع المجتمع أو المؤسسة ويشير أيضاً إلى مشروع التلميذ، أو مشروع التلميذ الشخصي، أو مشروع المعلم الشخصي أو مشروع الجماعة التعليمية. المهم أن المشروع أصبح اليوم ضرورة في مجتمع ذي عقلية وممارسات عملانية حيث إن كل شيء يخضع للبرمجة وبالتالي لوجهة معينة وتحقيق مجدّد، وذلك مرّة إلى تصوّر الزمن تصوّراً تقنياً، منذ عصر الأنوار وثورة العلوم الحديثة والدخول في عصر الصناعة والتقنيات.

إن «المشروع» لا يعلن الغايات الرئيسية والقيم الأساسية والتوجهات الأصلية والأهداف العامة العملانية والوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف وحسب، بل هو يجيش الوجدان الفردي والوجدان الجماعي ويغذيهما ويقوّيهما، إذ إن «المشروع» يصبح، في إطار الحوار والتشاور والتكؤن المستمر، مشروع كل واحد من أفراد

الأسرة التربوية، ويضطلع به كما لو أنه مشروعه الخاص (راجع الرسم البياني الرقم - ١ -). فالمدرسة في الماضي القريب كان لها بنيتها ونظامها وهيكلتها وتنظيم هو الأقرب من تطلعات المجتمع وسُلم قيمه. فكل واحد كان له دور يعرفه جيدًا ويعرف ما كان يتظر منه الآخرون من دون أن يكون هناك مشاريع مكتوبة أو مرسومة. إلا أن المتغيرات الاجتماعية - وقد سبق الحديث عنها - وأزمة انقلاب القيم وديمقراطية التعليم في الغرب وفي بعض بلدان الشرق والعالم الثالث، تدفع المدرسة إلى استعادة ذاتها والتأمل في دورها وإلى رسم طريق المستقبل من خلال اجتماع الكلّ حول صياغة المشروع التربوي الواحد وتحقيقه في مشاريع متنوعة (راجع الرسم البياني الرقم - ٢ -).

«المشروع» التربوي

وعند الحديث عن «المشروع» في التربية، لا نستطيع التغاضي عن الدور الذي قام به جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢)، السريي والفيلسوف الأميركي، في ربط «المشروع» بمفهوم الحرية والديمقراطية. فديوي يحدّد الحرية كقدرة وسلطة: «إنها القدرة على إنجاب المشاريع، والتفكير السويّ وقياس الرغبات من خلال نتائجها وعواقبها. إننا القدرة على اختيار الوسائل وترتيبها، إذ يستطيع الفرد متابعة تحقيق الأهداف بفضلها». وإذا كان «هدف التربية هو دومًا وأساسًا نفسه لم يتغير، أن يُعطى الشاب ما هو بحاجة إليه ليصبح بوجه نظامي ومتابع عضوًا في المجتمع»، فإن «التربية هي السبل الأساسي للتطور والتقدم والإصلاح الاجتماعي». إن ديوي، في مجمل مؤلفاته واختباراته التربوية - وإن كانت موضع ملاحظات جدية - يستند إلى عمل منظم في خدمة هدف معيّن يعلن عنه، وقد عبّر عنه بالتعلّم من خلال العمل (Learning by doing). والواقع أن ربط التربية بالمشروع تعبيرًا عن الحرية الشخصية جعل التربية تقوم بنفلة نوعية من التعليم السلطويّ المنبري إلى التعلّم كعمل مشترك بين المعلّم والتلميذ. والواقع أن التربية، من خلال المشروع

مستويات «المشروع» الخمسة

المبادرة إلى المشروع	نوعية العمل	مواقف أساسية	التصورات والمفاهيم
١	يعلم عن القيم ويصرح بالمبادئ ويجاهر بالنوايا الأساسية التي هي في أسس عمله ويحدد الأهداف العامة لذلك العمل.	إننا نعتقد ↑ إنني أعتقد	الغايات والمعتقدات
٢	يحدد الأهداف العامة التي ينوي تحقيقها من خلال كامل عمله.	إننا نريد ↓ إنني أريد	الأهداف العامة
٣	يحدد الاستراتيجيات العملائية أي الأهداف ذات الطابع العملائية، وهي أهداف تربوية.	إننا نريد ↓ إنني أريد	الأهداف العملائية
٤	يحدد الوسائل المعتمدة الضرورية والمساعدات المطلوبة والتوجيه اللازم.	إننا نعمل ↓ إنني نعمل	شروط التحقيق
٥	تحقق الأهداف ↑ وتقوم ما تحقق ↑	أعمل ↓ إننا نعمل	التحقيق والتفويض

مدة التحقيق	المؤسسة	حقل التحقيق	أصحاب المبادرة	نوعية المشروع
يتم على المدة. إلا أنه من الضروري الترسية الزمنية من بداية السنة الدراسية.	المؤسسة المدرسية هي التي تحضن بصورة واضحة هذه المبادرة. يمكن أن تصاغ عدة مبادرات في هذا المجال وفي المؤسسة نفسها.	يتم تحقيق المبادرة - المشروع مع مجموعة من التلامذة، وهي كتابة عن نشاطه طابع اجتماعي (عرض مسرحي، دراسة البيئة، عرض أبحاث...). التحقيق يقوم به التلامذة والأساتذة معاً.	المبادرون هم مجموعة من الأساتذة والتلامذة. المبادرة إرادية ترمي إلى تحديد نشاط وصياغته في مشروع معين مقدمة لتحقيقه.	مشروع عملي تربي
المدة تتجاوز السنة عادةً.	المؤسسة المدرسية ومحيطها شبكة علاقاتها بالخارج.	حقل التحقيق يتناول المدرسة وشبكة من الأماكن حول المدرسة حيث يستطيع التلميذ الانخراط بسهولة لاكتساب الاستقلالية وحسن المبادرة والموارد وعمل المسؤولية. مثلاً: العمل الاجتماعي	مجموعة من الجماعة التربوية (الإدارة، الأساتذة، الأهل...) تنمي مشروعاً يركز على التلميذ كقوة في المجتمع، لا على تلميذ تكون نهايتها	المشروع التربوي
المدة هي سنوية أو تتجاوز السنة.	المؤسسة المدرسية في الداخل لجهة تطوير المهارات التربوية لدى الأساتذة.	حقل تحقيق هذا المشروع هو المدرسة بأكملها أو في جزء منها. الحقل ليس الصف بحد ذاته بل الطرق التربوية في تأجيلها المهيبة.	تقوم بهذا المشروع مجموعة من الأساتذة تعرف بالفرق التعليمية. إنها الرافعة الصلبة التي تصنع مشروع المساواة المهيبة التربوية وتعمل على تحقيقه.	المشروع التعليمي
المدة تتوزع على زمن طويل.	المؤسسة المدرسية تقوم بالإعلان عن مبادراتها وأهدافها وغايتها والرسائل الأساسية لتحقيق ذلك.	المشروع يتناول جميع الفاعلين في المؤسسة وكذلك التلامذة والقاداس والأهل والفرقاء الذين لهم علاقة بالمدرسة.	هو المشروع الأساس، المشروع الأم الذي تستند إليه المشاريع الأخرى. فيه الترابيا والأبعاد والغايات الأساسية لعمى وجود المدرسة. المبادرون إليه أصحاب المدرسة أو مجموعة من المرتين فيها. وحده مجلس إدارة المدرسة يستطيع الصياغة النهائية وحق التعديل.	مشروع المؤسسة التعليمية التربوية
لا تحديد للمدة على أن تتجاوز الثلاثة أشهر.	المؤسسة المدرسية بأكمل ترافاتها معية بذلك. المؤسسة لها علاقة بذلك، وكذلك الوحدات التي تهتم بالترجي.	الانشطة التربوية والتعليمية في المؤسسة. يتمثل المشروع بوضعية التلميذ في المدرسة من الناحية الشخصية، وإدارته ونهجه والأساليب التي يستخدمها لوصوله إلى أهداف التعليم، وأهداف المؤسسة وأهدافه الشخصية.	كل فرد له علاقة بذلك أو لديه حسن المبادرة أو الإرادة أو النية.	مشروع المعلم وصياغة
متعددة السنوات.	المؤسسة تحتضن هذه المبادرة من خلال المسار من مكتب التكوين المستمر.	حقل التطبيق هو كيفية ممارسة التعليم من خلال استخدام الرسائل التربوية، والملاقة بكل تلميذ، ركيزة التكوين (عمل هو إنشائي فقط أو تكويني أيضاً) وكيفية دفع التلميذ إلى المشاركة وكيف أرى الغايات الأساسية لمشروع المؤسسة.	التلميذ يحوط به أحد الأساتذة أو الموجهين في التربية. المدرسة المؤسسة لها هم أساسي في ذلك.	مشروع التلميذ الشخصي
سنوية أو متعددة السنوات.			هو مشروع المعلم الذي يريد أن يني تدرسه على قواعد تؤدله للنجاح.	مشروع المعلم الشخصي

في مختلف صيغه وتنوعها، تتيح الفرصة أمام المتعلم أن يطور علاقة جديدة بمحيطه، يقدر بواسطتها أن يتحكم في ذاته، وأن يترصّل إلى امتلاك قدراته وملكاته، وأن يعي تاريخه وأهدافه، وأن تكون معارفه بحق اكتساباً له.

١. أسس «المشروع» التربوي

وعندما نتطّلع إلى الأسس التي يقوم عليها «المشروع» في التربية، نجده يأخذ بعين الاعتبار الركائز التالية:

١ - بما أن «المشروع» هو وثيقة تعرض لعمل مرتقب، فتبرره وتشرحه، لا بدّ إذاً من أن يبدأ التأسيس بتحليل الواقع ودراسة الحاجات اللذين يعتبران الشرط الضروري لصياغة المشروع، والأرضية الثابتة التي ستركّز عليها التوجّهات والأهداف. وبحسب أيّ مشروع، فلا بدّ من دراسة الأوضاع المحيطة كافة من مادية وبشرية ووسائل ممكنة وضغوط مرتقبة وغيرها...

٢ - التلميذ هو في صلب العملية التربوية، وتصوّر المستقبل التربوي التعليمي، أيّاً كان ذلك التصوّر من ضمن مشروع معين، لا يتمّ من دونه أولاً - وهذا ضرب من العبثية - ولا يوضع في الهامش، بل هو في وسط الحلقة. إنّ جدلية المشروع تدفع بالمتعلم، الفرد الإنسان، إلى الوسط، إلى صلب العملية التعليمية التكوينية، والغاية المطلقة هي ذلك الفرد قبل غيره. هذا يفترض أنّ المهمّ أو من يسترعي الاهتمام أولاً هو الشخص، وأنّ التعليم لا بدّ أن يأخذ بعين الاعتبار الإنسان التلميذ كفرد مدعو إلى إنضاج شخصيته.

٣ - لا يقوم المشروع إن لم يكن ثمرة حوار تربوي يقوم به أفرقاء الأسرة التربوية، حيثاً بكاملهم وأحياناً بعضهم، وذلك حسب نوعية المشروع وغايته. ويقدر ما يشمل المشروع الأفرقاء كافة (الإدارة، المربين، الأهل، القدامى، والأفرقاء الآخرين...) تكون الأهداف

والنوايا ثمرة حوار مشترك، فيتم تحديد غاية عامة يشترك فيها جميع الأفرقاء وتكون لهم المرجع والأساس.

٤ - لا بد من الأخذ بعين الاعتبار عند وضع المشروع، وخصوصاً مشروع أو شرعة المدرسة أو مشروع المدرسة التربوي، وظيفته أو وظائفه المتعددة التي لا بد لها أن تظهر في جانب من جوانبه. من هذه الوظائف الأساسية المرتبطة كلها أو بعضها بالمشروع، نعيّر التالية:

- الوظيفة الاقتصادية أو الإنتاجية، أي إنّ الموازنة المدرسية أصبحت مرتبطة بغايات تربوية وبأهداف تحتاج إلى وسائل وقدرات لتحقيقها.
- الوظيفة المعنوية، أي إنّ الأسرة التربوية كلها من طلاب وتلامذة وأهل وأساتذة، يجتمعون بروح واحدة حول أعمال وأهداف معينة، من شأنها أن تعطي وجودهم في المدرسة أو ارتباطهم بها معنى أكيداً. فاختيار المدرسة يصبح هنا اختياراً لأهدافها وروحيتها ومشروعها التربوي. حتى الدراسة، على ضوء المشروع، يصبح لها معنى ومبرر لأنها مرتبطة بسياق أهداف وتصور عام.

- الوظيفة التربوية التعليمية التثقيفية، أي إنّ العمل التربوي أصبح مشتركاً بين المعلم والتلميذ، ومرتبكاً بأهداف معينة تتحقق بالتتابع وبصورة مرحلية، وبالتالي فإنّ التربية لم تعد أنّ علينا أن ننهي البرنامج، وكأنّ هذا هو المطلوب وحده.

- الوظيفة السياسية الاجتماعية، أي إنّ المشروع التربوي ليس وسيلة وحسب، بل إنّ التمرس في وضعه وتركيبه وما يتبع ذلك من عمل على الذات من خلال علاقتها بالآخرين، وكذلك التعمق فيه من جانب التلميذ والمعلم على حدّ سواء؛ كلّ هذه الأمور تجعل من المشروع جزءاً من الكيان، وغاية في حدّ ذاته، إذ إنه يحضّر لمواطن الغد ويكونه عنصراً مشاركاً فاعلاً في الحياة العامة.

ملاحظ المشروع التربوي العامة هذه تشكل نوعاً من الشروط أو العناصر الضرورية المضمرة، التي لا بد من التوقّف عليها معيلاً إلى صياغة المشروع التربوي الذي أصبح مشاريع متنوّعة كما هو مبين في الرسم أعلاه

رسم بياني رقم - ٣ -

رؤية أخرى لمستويات المشروع الخمسة في مشروع تربوي جزئي

المستوى	التعرف	أمثال
أ - الغاية	توجه عام ينطبق على كلّ الحالات الممكنة وعلى كلّ الأفراد.	تحسين مستوى تنشئة الشبية وتكرينها.
ب - الهدف من؟ ماذا؟	يختلف عن أ إذ إنه يحدّد حقل العمل والهدف بصورة أوضح.	تمكين ٨٠ بالمئة من الشبية في صفّ معين من النجاح في البكالوريا.
ج - كيف؟	هنا يختلف ج عن ب، إذ إنه يحدّد الوسيلة للوصول إلى الهدف. يحتوي على التنظيم والمنهج والرسيلة والفاعلين للوصول إلى الغاية.	تنظيم دروس تقوية للحالات الصعبة طوال ٣ أو ٤ سنوات.
د - أين؟ مع من؟ كم؟	يختلف د عن ج لأنّه يحدّد المادّة التي يجب دراستها في فصول التقوية.	يختار بعضهم الحساب وبعضهم الآخر الآداب.
هـ - أين؟ مع من؟ كم؟ كيف؟ الزمن؟	يختلف هـ عن د إذ إنه يحدّد عدد فصول التقوية والفصول التي يجب دراستها ثانية... .	كلّ أساتذة الحساب والآداب سوف يشاركون في هذه الحملة بصورة دورية. عدد التلاميذ في الفصل لا يتجاوز العشرة.
		يلي كلّ مرحلة من ١٠ دروس تقوية امتحان لتقويم ما تمّ اكتسابه.

(راجع الرسم الياني الرقم ٢)، وإن كانت المراحل هي نفسها في صياغة كل مشروع (راجع الرسم الياني الرقم ٣). لن نسعى هنا لدراسة كل نوع من المشاريع أو وصفه وتعليه، بل إننا نتوقف على بعضها.

أولاً: «مشروع» المدرسة التربوي

إن كل مدرسة أو مؤسسة تعليمية تقوم بصياغة مشروعها التربوي، فيحدد على صعيدها ومن خلال خبرتها وهويتها الثقافية والاجتماعية، الطرق الصالحة لتطبيق الأهداف والمناهج ذات الطابع الوطني. فالمدرسة، أعامة كانت أم خاصة، مدعوة إلى صياغة هذا المشروع بشكل يتوافق مع سياسة الدولة العامة ومصلحة المواطنين. وهكذا يكون المشروع التربوي، على الأرجح، وإذا ما تقيّد بالمقاييس الصحيحة، ذات طابع وطني، حتى ولو كانت صياغته ذات وجه إقليمي أو مناطقي أو ديني أو اجتماعي محدود. فالعدد الأكبر من الأقرء مدعو إلى المشاركة في هذه الصياغة والمراقبة عليه موافقة شبه إجماعية أو إجماعية ليكون كل واحد مسؤولاً عنه. والواضح أن هذا المشروع هو موضع تقويم من وقت إلى آخر، ليتحقق الجميع من أن المشروع يتحوّل إلى مهارات يكتبها التلاميذ وهذا هو الأهم.

ثانياً: «مشروع» التلميذ الشخصي

إن هذا المشروع أو خطة العمل التي يضعها التلميذ لنفسه بعد أن يكون قد قلبها ودرسها بالضرورة مع المسؤولين في الإدارة التربوية والمعلمين تنضّن وجهين: اكتساب المعارف والطريقة في الحصول على ذلك والنجاح كمًا ونوعًا، والتوجيه الأكاديمي والمهني.

إن «المشروع» الخاص بالتلميذ ينطلق من البديهة التالية أو المسئلة اللاحقة: التلميذ هو شخص، وهذا يعني أنه ليس قربة فارغة ينبغي حشوها بالمعارف أو رأسًا فارغًا يلزم تخزينه أو محطة استقبال المعلومات المعارفية التي يثها المعلم. ما يميّز الشخص هو كرامته الشخصية، وما

يُميّز الكرامة هو القدرة الحالية أو التي ينبغي تقويتها على الأخذ بما هو سابق، وعلى إدراك الواقع الحاضر والتوجه نحو المستقبل وفقاً لمعالم وأهداف معينة ترافق التلميذ. مشروع التلميذ ينطلق من رفض المقولة البائدة: «تعلّم واخرس». وهو ينطلق أيضاً من تبدّل في النظرة إلى الحافز أو الحوافز (motivation) التي تدفع التلميذ إلى العمل أو التي تقذفه إلى الأمام (النموذج الباليستي). والحوافز هي العلامات الزائدة مثلاً، والعلاوات، والقصاص والمكافآت. وهذا النموذج لا يزال له مكانه ومكانته في الحياة المدرسية، إلا أنّ ما ينقض التلميذ في الكثير من الأحيان هو القوة الجاذبة، لا القوة الدافعة وحدّها. والقوة الجاذبة تتمثّل في الأهداف التي يضعها لنفسه بالاتفاق مع معلّمه وموجّهه؛ هي المشروع الشخصي الذي يركّز انطلاقاً من الصفوف التكميلية على نقاط الضعف في المسيرة المدرسية الشخصية ثم يأخذ منحى جديداً (التوجيه الأكاديمي الجامعي والسعي إلى اختيار المهنة) في الصفوف الثانوية.

إنّ هذه النظرة إلى الحافز تحثّ التلميذ على توظيف قدراته في أهداف ينبغي تحقيقها، لا على استهلاك المعارف والطاقات للوصول إلى نتيجة جيّدة، إذا تمّ تطبيق مبدأ الثواب والعقاب من خلال النقاط والعلامات. ولا بدّ في هذا المجال أن يُساعد التلميذ في اكتساب طريقة التقويم الذاتي، وفي اكتشاف الحواجز التي تمنعه من الوصول إلى المهارات. ومن الممارسات أو العناصر الأساسية التي تكوّن مشروع التلميذ نذكر:

- تعليم التلميذ على صياغة الأهداف من خلال تحليل واقعه داخل الصف وخارجه.
- التقويم التكويني، وهو يشير إلى المرحلة التي بلغها التلميذ في الوصول إلى تحقيق أهدافه، في حين أنّ العلامة تكفي بالإشارة إلى مقدارها الصّح والغلط.
- تعزيز العقد التربوي بين الأستاذ والتلميذ، والعقد يعرّز درجة معينة من الثقة بالذات خصوصاً عند التلامذة الذين لديهم صعوبات معينة.

- مساعدة التلميذ في اكتشاف الوسائل المنهجية التي تلائمه إن في الصف (تدوين رؤوس الأقسام، الانتباه إلى اللوح...) أو في البيت (مراجعة الدروس قبل الفروض، ضرورة وضع تصميم...)
- إن مبرة المشروع تتطلب الكثير من الزرع والجدية والانتباه والحذر. لا بد من محاذرة أربعة أخطار تهدد التلميذ:
- خطر الاختيار المسبق غير الناضج، وخطر الدخول في مشروع غير واضح المعالم.
- المشروع لجهة كونه قوة ضاغطة يعوق الخط الطبيعي لبناء الشخصية.
- الانحرافات ذات الطابع العاطفي التي قد تحصل في إطار غير صالح وغير مضبوط.
- تعزيز روح الفردية إذا ما انكمش التلميذ على نفسه.

ثالثاً: «مشروع» المعلم التربوي

إن ما يؤسس مشروع المعلم التربوي هو ما يضفي المعنى على عمله والتزامه. إنها التربية رسالة تكوين وتعليم وتنشئة وتهذيب ومساعدة الشاب على إنضاج قدراته. إنها ثانياً الغايات والأهداف الأساسية التي يتضمنها المشروع التربوي للمؤسسة التعليمية التي يعمل فيها. وأيضاً ثالثاً الأهداف المرتبطة بالمادة التي يعلمها والمسؤولية التي يتحملها. وسأل المعلم نفسه في مرحلة لاحقة: كيف أنظم عملي التربوي في الأمور التالية؟

- توزيع منى المنهاج وقابلية التلاميذ، الممكن والضروري.
- كيفية استخدام الكتاب المدرسي والوسائل التربوية التعليمية المختلفة..
- كيفية شرح الدروس من خلال إعلان الأهداف بصورة واضحة والتبني من أن الأهداف قد تحققت.
- كيفية تقويم أعمال التلاميذ، مدى استخدام التقويم التكويني ومدى استخدام التقويم الإنذاري.

- طريقة التعامل مع التلامذة ذوي الصعوبات المختلفة.
- ملاحظة الطرق التي تؤمن النجاح وتفضيلها على الأخرى.
- ضرورة الحوار التربوي الرصين مع المعلمين الآخرين.
- ضرورة قبول التكرين المستمر.

هذه لائحة ببعض الأمور التي تهتم المعلم في صفه ومعه، وهي في أساس عمله التربوي. وهي تجعل من المدرس مربيا ناجحا وتيسره بهوية تربوية أساسية تختلف عن الوظيفة الإدارية التي تؤدي مهمة محددة في المكان والزمان.

رابعاً: «المشروع» التربوي (الخاص بالمعلمين)

إن هذا المشروع يضعه فريق من المعلمين يقومون بتدريس مادة معينة من المواد أو مواد مختلفة. إنه يتعلق بمجموعة أو مجموعات محددة من التلامذة، وهو يتناول التربية (pédagogie)، أي في الوقت عينه، الطرق والوسائل والمحتوى. وهو يحتوي أهدافاً لا بد من تطبيقها وهي على نوعين: أهداف قصيرة الأمد تركز على مهارات واضحة محددة معارضة ينبغي الوصول إليها في وقت معين (في نهاية السنة المدرسية مثلاً)، وأهداف طويلة الأمد تتعلق بعمل تربوي يتطلب الكثير من الوقت ولا بد من تحقيقه في مختلف المواد؛ كاستقلالية، واكتساب طريقة البحث العلمي، والتفكير والحكم الصائبين، والقدرة على التعبير الكتابي الجيد إلخ... يتميز هذا المشروع بتوافق الفريق التربوي على مصطلحات واحدة وخطاب معين وعلى ممارسات وتصرفات معينة واحدة، مع تطبيق تلك الأهداف المرامي على أوضاع خاصة. المهم أن يبلغ التلميذ اكتساب مهارات محددة والتحكم في أوضاع تستجد عليه.

إن أمثلة المشاريع التربوية هذه ونماذجها التي تأخذ طريقها إلى التحقيق، تدل على أن المشروع في التربية هو واقع حي وهو عمل تربوي في حد ذاته يتلاءم وذهنية الإنسان المعاصر في مجتمعه وحياته العامة، في

التزامه الاقتصادي والاجتماعي. إنه يضع الإنسان أمام مسؤولياته وخصوصاً في قطاع مهم وأساسي في حياة المواطن وحياة الدولة المعاصرة. إنه يضع الأهل والمؤسسة التربوية وكذلك الدولة ومؤسساتها الرسمية أمام مسؤولية بناء الإنسان الكامل المتحرر من كل الشوائب. إنه يتيح الفرصة أمام الدولة لأن تكون حاضرة فعلاً في ميدان الأهداف والغايات العامة، ويؤسس لاستقلالية نسبية يتمتع بها الفاعلون المحليون الاجتماعيون أو الفاعلون داخل المدرسة التي تصبح المكان الأنسب لتعميق الحياة الديمقراطية وتحاشي التوتالية الإدارية العقيمة.. إلا أن «المشروع» يصبح وهماً إذا تحوّل إلى أمر موضوع، إلى قرار فوقّي، وهذا ما يتنافى مع روحية المشروع وفاعليته.

من منشورات دار المشرق



تيد الطبع: في سلسلة الفلاسفة والمتكلمون العرب المسيحيون - العصر
الوسطى، أبو رائطة التكريتي. بقلم الأب سبب دغش
اليسوعي.